اللام وفتحها من هلك وهلك ونهلك بالنون إلا القوم الفاسقين عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الأحقاف كتب له عشر حسنات بعدد كل رملة في الدنيا»(1).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة محمد ﷺ

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾.

وصدّوا وأعرضوا وامتنعوا عن الدخول في الإسلام أو صدّوا غيرهم عنه قال ابن عباس: رضي الله عنه: هم المطعمون يوم بدر وعن مقاتل: كانوا اثني عشر رجلاً من أهل الشرك يصدّون الناس عن الإسلام ويأمرونهم بالكفر وقيل: هم أهل الكتاب الذين كفروا وصدّوا من أراد منهم، ومن غيرهم أن يدخل في الإسلام وقيل: هو عام في كل من كفر وصدّ ﴿أضل أعمالهم﴾ أبطلها وأحبطها وحقيقته جعلها ضالة ضائعة ليس لها من يتقبلها ويثيب عليها كالضالة من الإبل(2) التي هي بمضيعة لا ربّ لها يحفظها، ويعتني بأمرها أو جعلها ضالة في كفرهم ومعاصيهم ومغلوبة بها كما يضل الماء في اللبن وأعمالهم ما عملوه في كفرهم مما كانوا يسمونه مكارم من صلة الأرحام، وفك الأسارى، وقرى الأضياف، وحفظ الجوار وقيل: أبطل ما عملوه من الكيد لرسول الله ﷺ والصدّ عن سبيل الله بأن نصره عليه وأظهر دينه على الدين كله.

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾.

﴿والذين آمنوا﴾ قال مقاتل هم ناس من قريش، وقيل: من الأنصار، وقيل: هم مؤمنو أهل الكتاب وقيل هو عامّ وقوله: ﴿وآمنوا بما نزل على محمد﴾ اختصاص للإيمان بالمنزل على رسول الله ﷺ من بين ما يجب به الإيمان تعظيمًا لشأنه وتعليمًا لأنه لا يصح الإيمان ولا يتم إلا به وأكد ذلك بالجملة الاعتراضية التي هي قوله: ﴿وهو الحق من ربهم﴾، وقيل معناها أنّ دين محمد هو الحق إذ لا يرد عليه النسخ وهو ناسخ لغيره وقرئ نزل وأنزل على البناء للمفعول ونزل على البناء للفاعل ونزل بالتخفيف ﴿كفر عنهم سيئاتهم﴾ ستر بإيمانهم وعملهم الصالح ما كان منهم من الكفر والمعاصي لرجوعهم عنها وتوبتهم

﴿وأصلح بالهم﴾ أي حالهم وشأنهم بالتوفيق في أمور الدين وبالتسليط على الدنيا بما أعطاهم من النصرة والتأييد.

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾.

﴿ذلك﴾ مبتدأ وما بعده خبره أي ذلك الأمر وهو إضلال أعمال أحد الفريقين، وتكفير سيئات الثاني بسبب اتباع هؤلاء الباطل وهؤلاء الحق ويجوز أن يكون ذلك خبر مبتدأ محذوف أي الأمر كما ذكر بهذا السبب فيكون محل الجار والمجرور منصوبًا على هذا ومرفوعًا على الأوّل و ﴿الباطل﴾ ما لا ينتفع به وعن مجاهد الباطل الشيطان، وهذا الكلام يسميه علماء البيان التفسير ﴿كذلك﴾ مثل ذلك الضرب ﴿يضرب الله للناس أمثالهم﴾ والضمير راجع إلى الناس أو إلى المذكورين من الفريقين على معنى أنه يضرب أمثالهم لأجل الناس ليعتبروا بهم.

فإن قُلْتَ: أي ضرب الأمثال؟ **قُلْتُ**: في أن جعل اتباع الباطل مثلاً لعمل الكفار واتباع الحق مثلاً لعمل المؤمنين، أو في أن جعل الإضلال مثلاً لخيبة الكفار وتكفير السيئات مثلاً لفوز المؤمنين.

فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾.

﴿لقيتم﴾ من اللقاء وهو الحرب ﴿فضرب الرقاب﴾ أصله فاضربوا الرقاب ضربًا فحذف الفعل، وقدّم المصدر فأنيب منابه مضافًا إلى المفعول وفيه اختصار مع إعطاء معنى التوكيد لأنك تذكر المصدر وتدل على الفعل بالنصبة التي فيه، وضرب الرقاب عبارة عن القتل لأنّ الواجب أنّ تضرب الرقاب خاصة دون غيرها من الأعضاء وذلك أنهم كانوا يقولون ضرب الأمير رقبة فلان، وضرب عنقه وعلاوته وضرب ما فيه عيناه إذا قتله وذلك أن قتل الإنسان أكثر ما يكون بضرب رقبته فوقع عبارة عن القتل، وإن ضرب بغير رقبته من المقاتل كما ذكرنا في قوله: بما كسبت أيديكم على أن في هذه العبارة من الغلظة والشدّة ما ليس في لفظ القتل لما فيه من تصوير القتل بأشنع صورة وهو حز العنق وإطارة العضو الذي هو رأس البدن وعلوه، وأوجه أعضائه ولقد زاد في هذه الغلظة في قوله

---

(1) ذكره الثعلبي، والواحدي، وابن مردويه في التفسير، الزيلعي 3/ 291.

(2) قال أحمد: هذا المعنى الثاني حسن متمكن مليء بمقابلة قوله: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ ثم قال: ﴿كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم﴾ وتحرير المقابلة بينهما أنّ الكفار ضلّت أعمالهم الصالحة في جملة أعمالهم السيئة من الكفر والمعاصي، حتى=

= صار صالحهم مستهلكاً في غمار سيئهم، ومقابله في المؤمنين ستر الله لأعمالهم السيئة في كنف أعمالهم الصالحة من الإيمان والطاعة، حتى صار سيئهم مكفراً ممحقاً في جنب صالح أعمالهم، وإلى هذا التمثيل الحسن في عدم تقبل صالح الكفار والتجاوز عن سيء أعمال المؤمنين وقعت الإشارة بقوله تعالى: ﴿كذلك يضرب الله للناس أمثالهم﴾، والله أعلم.

www.alukah.com

تعالى فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ﴿أثخنتموهم﴾ أكثرتم قتلهم وأغلظتموه من الشيء الثخين، وهو الغليظ أو أثقلتموهم بالقتل والجراح حتى أذهبتم عنهم النهوض ﴿فشدّوا الوثاق﴾ فأسروهم والوثاق بالفتح والكسر اسم ما يوثق به، منا وفداء منصوبان بفعليهما مضمرين أي فإمّا تمنون منا وإما تفدون فداء، والمعنى: التخيير بعد الأسر بين أن يمنوا عليهم فيطلقوهم وبين أن يفادوهم.

فإن قُلْتَ: كيف حكم أسارى المشركين؟ **قُلْتُ:** أمّا عند أبي حنيفة وأصحابه فأحد أمرين إمّا قتلهم وإمّا استرقاقهم أيهما رأى الإمام ويقولون في المنّ والفداء المذكورين في الآية نزل ذلك في يوم بدر، ثم نسخ وعن مجاهد: ليس اليوم منّ ولا فداء إنما هو الإسلام أو ضرب العنق ويجوز أن يراد بالمنّ أن يمنّ عليهم بترك القتل، ويسترقوا أو يمنّ عليهم فيخلوا لقبولهم الجزية وكونهم من أهل الذمّة وبالفداء أن يفادى بأساراهم أسارى المشركين، فقد رواه الطحاوي مذهبًا عن أبي حنيفة والمشهور أنه لا يرى فداءهم لا بمال ولا بغيره خيفة أن يعودوا حربًا للمسلمين، وأمّا الشافعي فيقول للإمام أن يختار أحد أربعة على حسب ما اقتضاه نظره للمسلمين وهو القتل والاسترقاق، والفداء بأسارى المسلمين والمنّ ويحتج بأن رسول الله ﷺ منّ على أبي عروة الحجي[1] وعلي بن أثال الحنفي[2] وفادى رجلًا برجلين من المشركين[3] وهذا كله منسوخ عند أصحاب الرأي، وقرئ فدى بالقصر مع فتح الفاء أو زار الحرب آلاتها وأثقالها التي لا تقوم إلا بها كالسلاح والكراع قال الأعشى:

وأعددت للحرب أوزارها   رماحًا طوالًا وخيلًا ذكورًا

وسميت أوزارها لأنه لما لم يكن لها بدّ من جرّها فكأنها تحملها وتستقل بها فإذا انقضت فكأنها وضعتها وقيل أوزارها آثامها يعني حتى يترك أهل الحرب وهم المشركون شركهم ومعاصيهم بأن يسلموا.

فإن قُلْتَ: حتى بم تعلقت **قُلْتُ:** لا تخلوا إما أن تتعلق بالضرب والشدّ أو بالمنّ والفداء، فالمعنى: على كلا المتعلقين عند الشافعي رضي الله عنه أنهم لا يزالون على ذلك أبدًا إلى أن لا يكون حرب مع المشركين، وذلك إذا لم يبق لهم شوكة وقيل إذا نزل عيسى ابن مريم عليه السلام وعند أبي حنيفة رحمه الله إذا علق بالضرب، والشدّ فالمعنى: أنهم يقتلون ويؤسرون حتى تضع جنس الحرب الأوزار وذلك حين لا تبقى شوكة للمشركين وإذا علق بالمن، والفداء فالمعنى: أنه يمن عليهم ويفادون حتى تضع حرب بدر أوزارها إلا أن يتأول المنّ والفداء بما ذكرنا من التأويل ﴿ذلك﴾ أي الأمر ذلك، أو افعلوا ذلك ﴿لانتصر منهم﴾ لانتقم منهم ببعض أسباب الهلك من خسف أو رجفة أو حاصب أو غرق أو موت جارف ﴿ولكن﴾ أمركم بالقتال ليبلو المؤمنين بالكافرين بأن يجاهدوا ويصبروا حتى يستوجبوا الثواب العظيم والكافرين بالمؤمنين بأن يعاجلهم على أيديهم ببعض ما وجب لهم من العذاب، وقرئ قتلوا بالتخفيف والتشديد وقتلوا وقاتلوا، وقرئ فلن يضل أعمالهم وتضل أعمالهم على البناء للمفعول ويضل أعمالهم من ضلّ وعن قتادة: أنها نزلت في يوم أحد.

﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦﴾.

﴿عرفها لهم﴾ أعلمها لهم وبينها بما يعلم به كل أحد منزلته ودرجته من الجنة قال مجاهد: يهتدي أهل الجنة إلى مساكنهم منها لا يخطئون كأنهم كانوا سكانها منذ خلقوا لا يستدلون عليها، وعن مقاتل: إنّ الملك الذي وكل بحفظ عمله في الدنيا يمشي بين يديه فيعرفه كل شيء أعطاه الله أو طيبها لهم من العرف وهو طيب الرائحة، وفي كلام بعضهم عزف كنوح القماري وعرف كفوح القماري أو حددها لهم فجنة كل أحد محدودة مفرزة عن غيرها من عرف الدار وارفها والعرف والأرف: الحدود.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾.

﴿إن تنصروا﴾ دين ﴿الله﴾ ورسوله ﴿ينصركم﴾ على عدوكم ويفتح لكم ﴿ويثبت أقدامكم﴾ في مواطن الحرب أو على محجة الإسلام.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٨﴾.

﴿والذين كفروا﴾ يحتمل الرفع على الابتداء والنصب بما يفسره ﴿فتعسًا لهم﴾ كأنه قال: أتعس الذين كفروا.

فإن قُلْتَ: علام عطف قوله: ﴿وأضل أعمالهم﴾ **قُلْتُ:** على الفعل الذي نصب تعسًا لأنّ المعنى فقال تعساً لهم أو فقضى تعساً لهم وتعساً له نقيض لعاً له قال الأعشى:

بالتعس أولى لها من أن أقول لعاً

يريد فالعثور والانحطاط أقرب لها من الانتعاش والثبوت. وعن ابن عباس رضي الله عنهما يريد في الدنيا القتل وفي الآخرة التردد في النار.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٩﴾.

﴿كرهوا﴾ القرآن وما أنزل الله فيه من التكاليف والأحكام لأنهم قد ألفوا الإهمال وإطلاق العنان في الشهوات والملاذ فشق عليهم ذلك وتعاظمهم، دمره: أهلكه ودمر عليه أهلك عليه ما يختص به والمعنى دمر الله عليهم ما اختص بهم من أنفسهم وأموالهم وأولادهم وكل ما كان لهم.

---

(1) ذكره ابن هشام في سيرته 2/128.

(2) لم أجده.

(3) أخرجه الترمذي في كتاب: السير، باب: ما جاء في قتل الأسارى والفداء (الحديث رقم: 1568).

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾﴾.

﴿وللكافرين أمثالها﴾ الضمير للعاقبة المذكورة أو للهلكة لأنّ التدمير يدل عليها، أو للسنة لقوله عزّ وعلا ﴿سنة الله في الذين خلوا﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾.

﴿مولى الذين آمنوا﴾ وليهم وناصرهم وفي قراءة ابن مسعود ولي الذين آمنوا، ويروى أنّ رسول الله ﷺ كان في الشعب يوم أحد وقد فشت فيهم الجراحات وفيه نزلت، فنادى المشركون أعل هبل فنادى المسلمون الله أعلى وأجل فنادى المشركون يوم بيوم والحرب سجال إن لنا عزى ولا عزى لكم، فقال رسول الله ﷺ: «قولوا الله مولانا ولا مولى لكم إنّ القتلى مختلفة أما قتلانا فأحياء يرزقون، وأما قتلاكم ففي النار يعذبون»[1].

فإن قُلْتَ: قوله تعالى: ﴿وردوا إلى الله مولاهم الحق﴾ مناقض لهذه الآية. قُلْتُ: لا تناقض بينهما لأنّ الله مولى عباده جميعًا على معنى: أنه ربهم ومالك أمرهم وأما على معنى الناصر فهو مولى المؤمنين خاصة.

﴿يتمتعون﴾ ينتفعون بمتاع الحياة الدنيا أيامًا قلائل ﴿ويأكلون﴾ غافلين غير مفكرين في العاقبة ﴿كما تأكل الأنعام﴾ في مسارحها ومعالفها غافلة عما هي بصدده من النحر والذبح ﴿مثوى لهم﴾ منزل ومقام.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾.

وقرئ: وكائن بوزن كاعن، وأراد بالقرية أهلها ولذلك قال: ﴿أهلكناهم﴾ كأنه قال: وكم من قوم هم أشد قوّة من قومك الذين أخرجوك أهلكناهم، ومعنى أخرجوك كانوا سبب خروجك.

فإن قُلْتَ: كيف قال ﴿فلا ناصر لهم﴾ وإنما هو أمر قد مضى؟ قُلْتُ: مجراه مجرى الحال المحكية كأنه قال: أهلكناهم فهم لا ينصرون من زين له هم أهل مكة الذين زين لهم الشيطان شركهم وعداوتهم لله ورسوله ومن كان على بينة من ربه أي على حجة من عنده وبرهان وهو القرآن المعجز وسائر المعجزات هو رسول الله ﷺ.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم ﴿١٤﴾﴾.

وقرئ: أمن كان على بينة من ربه وقال تعالى: ﴿سوء عمله واتبعوا﴾ للحمل على لفظ من ومعناه.

﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله تعالى: ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون فيها انهار﴾ كمن هو خالد في النار؟ قُلْتُ: هو كلام في صورة الإثبات ومعنى النفي[2] والإنكار لانطوائه تحت حكم كلام مصدر بحرف الإنكار ودخوله في حيزه وانخراطه في سلكه وهو قوله تعالى: ﴿أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله﴾[3] فكأنه قيل: أمثل الجنة كمن هو خالد في النار أي كمثل جزاء من هو خالد في النار.

فإن قُلْتَ: فلم عرى من حرف الإنكار وما فائدة التعرية؟ قُلْتُ: تعريته من حرف الإنكار فيها زيادة تصوير لمكابرة من يسوّى بين المتمسك بالبينة والتابع لهواه وأنه بمنزلة من يثبت التسوية بين الجنة التي تجري فيها تلك الأنهار وبين النار التي يسقى أهلها الحميم ونظيره قول القائل:

أفـــرح أن أرزأ الـــكـــرام وأن ... أورث نودًا شـصـائـصًـا نـبـلاً

هو كلام منكر للفرح برزية الكرام ووراثة الذود مع تعريه عن حرف الإنكار لانطوائه تحت حكم قول من قال: أتفرح بموت أخيك وبوراثة إبله والذي طرح لأجله حرف الإنكار إرادة أن يصوّر قبح ما أزن فكأنه قال له: نعم مثلي يفرح بمرزاة الكرام وبان يستبدل منهم نودًا يقل طائله وهو من التسليم الذي تحته كل إنكار، ومثل الجنة صفة الجنة العجيبة الشأن وهو مبتدأ وخبره كمن هو خالد وقوله فيها أنهار داخل في حكم الصلة كالتكرير لها ألا ترى إلى صحة قولك التي فيها أنهار، ويجوز أن يكون خبر

---

(1) الزيلعي 3/297.

(2) قال أحمد: كم ذكر الناس في تاويل هذه الآية، فلم أر أطلى ولا أحلى من هذه النكت التي نكرها لا يعوزها، إلا التنبيه على أنّ في الكلام محنوفاً لا بدّ من تقديره؛ لأنه لا معادلة بين الجنة وبين الخالدين في النار، إلا على تقدير مثل ساكن فيه يقوم وزن الكلام ويتعادل كفتاه، ومن هذا النمط قوله تعالى: ﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله﴾ فإنه لا بدّ من تقدير محنوف مع الأوّل، أو الثاني ليتعادل القسمان، وبهذا الذي قدرته في الآية ينطبق آخر الكلام= على أوّله، فيكون المقصود تنظير بعد التسوية بين المتمسك بالسيئة، والراكب للهوى ببعد التسوية بين المنعم في الجنة، والمعذب في النار على الصفات المتقابلة المنكورة في الجهتين، وهو من وادي تنظير السيء بنفسه باعتبار حالتين إحداهما أوضح في البيان من الأخرى، فإنّ المتمسك بالسنة هو المنعم في الجنة الموصوفة والمتبع للهوى هو المعذب في النار المنعوتة، ولكن أنكر التسوية بينهما باعتبار الأعمال أوّلاً، وأوضح ذلك بإنكار التسوية بينهما باعتبار الجزاء ثانياً.

(3) سورة محمد، الآية: 14.

obeikandi.com

مبتدأ محذوف هي فيها أنهار وكأن قائلاً قال: وما مثلها فقيل فيها أنهار وأن يكون في موضع الحال أي مستقرّة فيها أنهار، وفي قراءة علي رضي الله عنه أمثال الجنة أي ما صفاتها كصفات النار، وقرئ: ﴿أسن﴾ يقال أسن الماء وأجن إذا تغير طعمه وريحه وأنشد ليزيد بن معاوية:

لقد سقتني رضابا غير ذي أسن ... كالمسك فت على ماء العناقيد

﴿من لبن لم يتغير طعمه﴾ كما تتغير ألبان الدنيا فلا يعود قارصًا ولا حازرًا ولا ما يكره من الطعوم ﴿لذة﴾ تأنيث لذ وهو اللذيذ أو وصف بمصدر، وقرئ بالحركات الثلاث فالجر على صفة الخمر والرفع على صفة الأنهار والنصب على العلة أي لأجل لذة الشاربين والمعنى ما هو إلا التلذذ الخالص ليس معه ذهاب عقل، ولا خمار ولا صداع ولا آفة من آفات الخمر ﴿مصفى﴾ لم يخرج من بطون النحل فيخالطه الشمع وغيره ﴿ماء حميمًا﴾ قيل إذا دنا منهم شوى وجوههم، وإنما زت فروة رؤسهم فإذا شربوه قطع أمعاءهم، هم المنافقون كانوا يحضرون مجلس رسول الله ﷺ فيسمعون كلامه ولا يعونه ولا يلقون له بالاً تهاوناً منهم فإذا خرجوا قالوا لأولى العلم من الصحابة ماذا قال الساعة على جهة الاستهزاء وقيل كان يخطب فإذا عاب المنافقين خرجوا فقالوا: ذلك للعلماء، وقيل قالوه لعبد الله بن مسعود وعن ابن عباس: أنا منهم وقد سميت فيمن سئل.

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ۚ أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوٓا أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾.

﴿آنفًا﴾، وقرئ أنفًا على فعل نصب على الظرف قال الزجاج: هو من استأنفت الشيء إذا ابتدأته، والمعنى: ماذا قال في أوّل وقت يقرب منا.

وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾.

﴿زادهم﴾ الله ﴿هدى﴾ بالتوفيق ﴿وآتاهم تقواهم﴾ أعانهم عليها أو آتاهم جزاء تقواهم وعن السدّي: بيّن لهم ما يتقون، وقرئ: وأعطاهم وقيل: الضمير هم زادهم لقول الرسول أو الاستهزاء المنافقين أن تأتيهم بدل اشتمال من الساعة نحو أن تطؤهم من قوله رجال مؤمنون ونساء مؤمنات.

فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴿١٨﴾.

وقرئ: ﴿أن تأتيهم﴾ بالوقف على الساعة واستئناف الشرط وهي في مصاحف أهل مكة كذلك.

فإن قلتَ: فما جزاء الشرط؟ قلتُ: قوله فأنى لهم ومعناه أن تأتهم الساعة فكيف لهم ذكراهم أي تذكرهم واتعاظهم إذا جاءتهم الساعة يعني: لا تنفعهم الذكرى حينئذٍ كقوله تعالى: ﴿يومئذٍ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى﴾.

فإن قلتَ: بم يتصل قوله ﴿فقد جاء أشراطها﴾ على القراءتين قلتُ: بإتيان الساعة اتصال العلة بالمعلول كقولك: إن أكرمني زيد فأنا حقيق بالإكرام أكرمه والأشراط العلامات قال أبو الأسود:

إن كنت قد أزمعت بالصرم بيننا ... فقد جعلت أشراط أوله تبدو

وقيل مبعث محمد خاتم الأنبياء ﷺ وعليهم منها وانشقاق القمر والدخان وعن الكلبي: كثرة المال والتجارة وشهادة الزور وقطع الأرحام وقلة الكرام وكثرة اللئام، وقرئ بغتة بوزن جربة وهي غريبة لم ترد في المصادر أختها وهي مروية عن أبي عمرو وما أخوفني أن تكون غلطة من الراوي على أبي عمرو وأن يكون الصواب بغتة بفتح الغين من غير تشديد كقراءة الحسن فيما تقدم، لما ذكر حال المؤمنين وحال الكافرين قال: إذا علمت أن الأمر كما ذكر من سعادة هؤلاء وشقاوة هؤلاء.

فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾.

فاثبت على ما أنت عليه من العلم بوحدانية الله وعلى التواضع، وهضم النفس باستغفار ذنبك وذنوب من على دينك، والله يعلم أحوالكم ومتصرفاتكم ومتقلبكم في معايشكم ومتاجركم ويعلم حيث تستقرون في منازلكم أو متقلبكم في حياتكم ومثواكم في القبور أو متقلبكم في أعمالكم ومثواكم من الجنة والنار ومثله حقيق بأن يخشى ويتقى وأن يستغفر ويسترحم وعن سفيان بن عيينة انه سئل عن فضل العلم، فقال: ألم تسمع قوله حين بدأ به فقال: فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك فأمر بالعمل بعد العلم، وقال: ﴿اعلموا إنما الحياة الدنيا لعب ولهو﴾ إلى قوله: ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم﴾ وقال: ﴿واعلموا انما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ ثم قال بعد ﴿فاحذروهم﴾ وقال: ﴿واعلموا انما غنمتم من شيء فإنّ لله خمسه﴾ ثم أمر بالعمل بعد.

وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾.

كانوا يدعون الحرص عليه الجهاد ويتمنونه بألسنتهم ويقولون: ﴿لولا نزلت سورة﴾ في معنى الجهاد ﴿فإذا انزلت﴾ وأمروا فيها بما تمنوا وحرصوا عليه كاعوا وشق عليهم وسقطوا في أيديهم كقوله تعالى: ﴿فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس﴾ ﴿محكمة﴾ مبينة غير متشابهة لا تحتمل وجهًا إلا وجوب القتال وعن قتادة: كل سورة فيها ذكر القتال فهي محكمة، وهي أشدّ القرآن على المنافقين وقيل لها محكمة؛ لأنّ النسخ لا يرد عليها من قبل أنّ القتال قد نسخ ما كان من الصفح والمهادنة، وهو غير منسوخ إلى يوم القيامة وقيل: هي المحدثة لأنها حين يحدث نزولها لا يتناولها النسخ ثم تنسخ بعد ذلك، أو

obeikandi.com

تبقى غير منسوخة وفي قراءة عبد الله سورة محدثة وقرئ فإذا نزلت سورة وذكر فيها القتال على البناء للفاعل ونصب القتال **﴿الذين في قلوبهم مرض﴾** هم الذين كانوا على حرف غير ثابتي الأقدام **﴿نظر المغشي عليه من الموت﴾** أي تشخص أبصارهم جبنًا وهلعًا وغيظًا كما ينظر من أصابته الغشية عند الموت **﴿فأولى لهم﴾** وعيد بمعنى فويل لهم وهو أفعل من الولي وهو القرب، ومعناه: الدعاء عليهم بأن يليهم المكروه.

طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾.

﴿طاعة وقول معروف﴾ كلام مستأنف أي طاعة وقول معروف خير لهم، وقيل: هي حكاية قولهم أي قالوا طاعة وقول معروف بمعنى أمرنا طاعة وقول معروف وتشهد له قراءة أبيّ يقولون طاعة وقول معروف **﴿فإذا عزم الأمر﴾** أي جدّ والعزم والجدّ لأصحاب الأمر وإنما يسندان إلى الأمر إسنادًا مجازيًا ومنه قوله تعالى: إن ذلك لمن عزم الأمور **﴿فلو صدقوا الله﴾** فيما زعموا من الحرص على الجهاد أو فلو صدقوا في إيمانهم وواطأت قلوبهم فيه ألسنتهم.

فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾.

عسيت وعسيتم لغة أهل الحجاز وأما بنو تميم فيقولون عسى أن تفعل، وعسى أن تفعلوا ولا يلحقون الضمائر وقرأ نافع بكسر السين وهو غريب وقد نقل الكلام من الغيبة إلى الخطاب على طريقة الالتفات ليكون أبلغ في التوكيد.

فإن قُلْتَ: ما معنى **﴿فهل عسيتم﴾** **﴿أن تفسدوا في الأرض﴾**؟ قُلْتُ: معناه هل يتوقع منكم الإفساد.

فإن قُلْتَ: فكيف يصح هذا في كلام الله عز وعلا وهو عالم بما كان وما يكون؟ قُلْتُ: معناه: أنكم لما عهد منكم أحقاء بأن يقول لكم كل من ذاقكم وعرف تمريضكم، ورخاوة عقدكم في الإيمان يا هؤلاء ما ترون هل يتوقع منكم إن توليتم أمور الناس، وتأمرتم عليهم لما تبين منكم من الشواهد ولاح من المخايل **﴿أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾** تناحراً على الملك، وتهالكاً على الدنيا وقيل: إن أعرضتم وتوليتم عن دين رسول الله ﷺ وسنته أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية من الإفساد في الأرض بالتغاور والتناهب وقطع الأرحام بمقاتلة بعض الأقارب بعضًا ووأد البنات، وقرئ وليتم وفي قراءة علي بن أبي طالب رضي الله عنه توليتم أي إن تولاكم ولاة غشمة خرجتم معهم ومشيتم تحت لوائهم وأفسدتم بإفسادهم، وقرئ وتقطعوا وتقطعوا من التقطيع والتقطع.

أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾.

﴿أولئك﴾ إشارة إلى المذكورين **﴿لعنهم الله﴾** لإفسادهم وقطعهم الأرحام فمنعهم ألطافه وخذلهم حتى صموا عن استماع الموعظة وعموا عن إبصار طريق الهدى، ويجوز أن يريد بالذين آمنوا المؤمنين الخلص الثابتين وأنهم يتشوقون إلى الوحي إذا أبطأ عليهم فإذا أنزلت سورة في معنى الجهاد رأيت المنافقين فيما بينهم يضجرون منها.

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾.

﴿أفلا يتدبرون القرآن﴾ ويتصفحونه وما فيه من المواعظ والزواجر ووعيد العصاة حتى لا يجسروا على المعاصي، ثم قال: **﴿أم على قلوب أقفالها﴾** وأم بمعنى بل وهمزة التقرير للتسجيل عليهم بأن قلوبهم مقفلة لا يتوصل إليها ذكر، وعن قتادة إذًا والله يجدوا في القرآن زاجرًا عن معصية الله لو تدبروه، ولكنهم أخذوا بالمتشابه فهلكوا.

فإن قُلْتَ: لم نكرت القلوب وأضيفت الأقفال إليها؟ قُلْتُ: أما التنكير، ففيه وجهان: أن يراد على قلوب قاسية مبهم أمرها في ذلك أو يراد على بعض القلوب وهي قلوب المنافقين وأما إضافة الأقفال فلأنه يريد الأقفال المختصة بها وهي أقفال الكفر التي استغلقت فلا تنفتح وقرئ إقفالها على المصدر.

إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾.

﴿الشيطان سوّل لهم﴾ جملة من مبتدأ وخبر وقعت خبرًا لإنّ كقولك إنّ زيدًا عمرو مر به. سوّل لهم سهل لهم ركوب العظائم من السول وهو الاسترخاء وقد اشتقه من السؤل من لا علم له بالتصريف والاشتقاق جميعًا **﴿وأملى لهم﴾** ومدّ لهم في الآمال والأماني وقرئ **﴿وأملي لهم﴾** يعني إنّ الشيطان يغويهم، وأنا أنظرهم كقوله تعالى: **﴿إنما نملي لهم﴾** وقرئ: **﴿وأملي لهم﴾** على البناء للمفعول أي: أمهلوا ومدّ في عمرهم وقرئ سوّل لهم، ومعناه: كيد الشيطان زين لهم على تقدير حذف المضاف.

فإن قُلْتَ: من هؤلاء؟ قُلْتُ: اليهود كفروا بمحمد ﷺ من بعد ما تبين لهم الهدى، وهو نعته في التوراة وقيل هم المنافقون.

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾.

الذين قالوا: اليهود، والذين كرهوا ما نزل الله المنافقون وقيل عكسه، وأنه قول المنافقين لقريظة والنضير لئن أخرجتم لتخرجنّ معكم وقيل بعض الأمر التكذيب برسول الله ﷺ أو بلا إله إلا الله أو ترك القتال معه وقيل هو قول أحد الفريقين للمشركين **﴿سنطيعكم﴾** في التظافر على عداوة رسول الله ﷺ والقعود عن الجهاد معه ومعنى **﴿في بعض الأمر﴾** في بعض ما تأمرون به أو في بعض الأمر الذي يهمكم **﴿والله يعلم إسرارهم﴾** وقرئ إسرارهم على المصدر قالوا ذلك سرًا فيما بينهم فأفشاه الله عليهم.

فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾.

فكيف يعملون وما حيلتهم حينئذ وقرئ توفاهم ويحتمل أن يكون ماضيًا ومضارعًا قد حذفت إحدى تاءيه كقوله تعالى: ﴿إن الذي توفاهم الملائكة﴾[1] وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لا يتوفى أحد على معصية الله إلا يضرب من الملائكة في وجهه ودبره[2].

ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾.

﴿ذلك﴾ إشارة إلى التوفي الموصوف ﴿أسخط﴾ الله من كتمان نعت رسول الله ﷺ و﴿رضوانه﴾ الإيمان برسول الله.

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾.

﴿أضغانهم﴾ أحقادهم وإخراجها إبرازها لرسول الله ﷺ وللمؤمنين وإظهارهم على نفاقهم وعداوتهم لهم وكانت صدورهم تغلي حنقًا عليهم.

وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴿٣٢﴾.

﴿لأريناكهم﴾ لعرفناكهم ولدللناك عليهم حتى تعرفهم بأعيانهم لا يخفون عليك ﴿بسيماهم﴾ بعلامتهم، وهو أن يسمهم الله تعالى بعلامة تعلمون بها وعن أنس رضي الله عنه ما خفي على رسول الله ﷺ بعد هذه الآية شيء من المنافقين كان يعرفهم بسيماهم، ولقد كنا في بعض الغزوات وفيها تسعة من المنافقين يشكوهم الناس فناموا ذات ليلة وأصبحوا وعلى جبهة كل واحد منهم مكتوب هذا منافق[3].

فإن قُلْتَ: أي فريق بين اللامين في: فلعرفتهم ولتعرفنهم؟ قُلْتُ: الأولى هي الداخلة في جواب لو كالتي في لأريناكهم كررت في المعطوف، وأما اللام في ولتعرفنهم فواقعة مع النون في جواب قسم محذوف ﴿في لحن القول﴾ في نحوه وأسلوبه، وعن ابن عباس هو قولهم ما لنا إن أطعنا من الثواب ولا يقولون ما علينا إن عصينا من العقاب، وقيل اللحن أن تلحن بكلامك أي تميله إلى نحو من الإنحاء ليفطن له صاحبك كالتعريض والتورية قال:

ولقد لحنت لكم لكيما تفقهوا ... واللحن يعرفه ذوو الألباب

وقيل للمخطئ لاحن لأنه يعدل بالكلام عن الصواب.

﴿اخباركم﴾ ما يحكى عنكم، وما يخبر به عن أعمالكم ليعلم حسنها من قبيحها لأنّ الخبر على حسب المخبر عنه إن حسناً فحسن وإن قبيحًا فقبيح، وقرئ يعقوب ونبلو بسكون الواو على معنى ونحن نبلو أخباركم، وقرئ وليبلونكم ويعلم ويبلو بالياء وعن الفضيل انه كان إذا قرأها بكى وقال: اللهم لا تبلنا فإنك إن بلوتنا فضحتنا، وهتكت أستارنا وعذبتنا.

﴿وسيحبط أعمالهم﴾ التي عملوها في دينهم يرجون بها الثواب لأنها مع كفرهم برسول الله ﷺ باطلة وهم قريظة والنضير أو سيحبط أعمالهم التي عملوها، والمكايد التي نصبوها في مشاقة الرسول أي سيبطلها فلا يصلون منها إلى أغراضهم بل يستنصرون بها، ولا يثمر لهم إلا القتل والجلاء عن أوطانهم وقيل هم رؤساء قريش والمطعمون يوم بدر.

۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾.

﴿ولا تبطلوا أعمالكم﴾ أي لا تحبطوا الطاعات بالكبائر[4] كقوله تعالى: ﴿لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾ إلى أن قال: ﴿أن تحبط أعمالكم﴾، وعن أبي العالية كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون أنه لا يضر مع الإيمان ذنب كما لا ينفع مع الشرك عمل[5] حتى نزلت:

(1) سورة النساء، الآية: 97.

(2) وذكر القرطبي نحوه بدون سند 16/165، الزيلعي (3/298).

(3) قال الزيلعي غريب، وهو في الثعلبي هكذا 3/298.

(4) قال احمد: قاعدة أهل السنة مؤسسة على أنّ الكبائر ما دون الشرك لا تحبط حسنة مكتوبة؛ لأنّ الله لا يظلم مثقال ذرّة، وإن تك حسنة يضاعفها، ويؤت من لدنه أجراً عظيماً نعم يقولون: إنّ الحسنات يذهبن السيئات كما وعد به الكريم جلّ وعلا، وقاعدة المعتزلة موضوعة على أنّ كبيرة واحدة تحبط ما تقدّمها من الحسنات، ولو كانت مثل زبد البحر؛ لأنهم يقطعون بخلود الفاسق في النار، وسلب سمة الإيمان عنه، ومتى خلد في النار لم تنفع طاعاته ولا إيمانه، فعلى هذا بنى الزمخشري كلامه، وجلب الآثار = التي في بعضها موافقة في الظاهر لمعتقده، ولا كلام عليها جملة من غير تفصيل؛ لأنّ القاعدة المتقدّمة ثابتة قطعاً بادلة اقتضت ذلك يحاشى كل معتبر في الحل، والعقد عن مخالفتها فمهما ورد من ظاهر يخالفها وجب ردّه إليها بوجه من التاويل، فإن كان نصاً لا يقبل التأويل، فالطريق في ذلك تحسين الظنّ بالمنقول عنه، والتوريك بالغلط على النقلة على أنّ الأثر المذكور عن ابن عمر هو أولى بأن يدل ظاهره لاهل السنة، فتامّله وأما محمل الآية عند أهل الحق فعلى أن النهي عن الإخلال بشرط من شروط العمل، وبركن يقتضي بطلانه من أصله؛ لا أنه يبطل بعد استجماعه شرائط الصحة والقبول.

(5) رواه محمد بن نصر المروزي، الزيلعي 3/298.

obeikandi.com

﴿ولا تبطلوا أعمالكم﴾، فكانوا يخافون الكبائر على أعمالهم وعن حذيفة، فخافوا أن تحبط الكبائر أعمالهم وعن ابن عمر كنا نرى أنه ليس شيء من حسناتنا إلا مقبولاً حتى نزل، ولا تبطلوا أعمالكم فقلنا: ما هذا الذي يبطل أعمالنا فقلنا الكبائر الموجبات والفواحش حتى نزل: ﴿إنّ الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ فكففنا عن القول في ذلك فكنا نخاف على من أصاب الكبائر، ونرجو لمن لم يصبها[1] وعن قتادة رحمه الله رحم الله عبدًا لم يحبط عمله الصالح بعمله السيء وقيل لا تبطلوها بمعصيتهما، وعن ابن عباس رضي الله عنهما لا تبطلوها بالرياء والسمعة وعنه بالشك والنفاق، وقيل بالعجب فإنّ العجب يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب وقيل ولا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾.

﴿ثم ماتوا وهم كفار﴾ قيل هم أصحاب القليب والظاهر العموم.

فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾.

﴿فلا تهنوا﴾ ولا تضعفوا ولا تذلوا للعدو ﴿و﴾ لا ﴿تدعو إلى السلم﴾ وقرئ: ﴿السلم﴾ وهما المسالمة ﴿وأنتم الأعلون﴾ أي الأغلبون الأقهرون ﴿والله معكم﴾ أي ناصركم وعن قتادة لا تكونوا أوّل الطائفتين ضرعت إلى صاحبتها بالموادعة، وقرئ ولا تدعوا من ادّعى القوم وتداعوا إذا دعوا نحو قولك ارتموا الصيد وتراموه وتدعوا مجزوم لدخوله في حكم النهي، أو منصوب لإضمار إن ونحو قوله تعالى: وأنتم الأعلون قوله تعالى: ﴿إنك أنت الأعلى﴾[2] ﴿ولن يتركم﴾ من وترت الرجل إذا قتلت له قتيلاً من ولد أو أخ حميم أو حربته وحقيقته أفردته من قريبه أو ماله من الوتر وهو الفرد فشبه إضاعة عمل العامل، وتعطيل ثوابه بوتر الواتر وهو من فصيح الكلام ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «من فاتته صلاة العصر، فكأنما وتر أهله وماله»[3]. أي أفرد عنهما قتلاً ونهبًا.

إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾.

﴿يؤتكم أجوركم﴾ ثواب إيمانكم وتقواكم ﴿ولا يسألكم﴾ أي ولا يسألكم جميعها إنما يقتصر منكم على ربع العشر ثم قال:

إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾.

﴿إن يسئلكموها فيحفكم﴾ أي يجهدكم ويطلبه كله والإحفاء المبالغة وبلوغ الغاية في كل شيء، يقال: أحفاه في المسألة إذا لم يترك شيئًا من الإلحاح وأحفى شاربه إذا استأصله ﴿تبخلوا ويخرج أضغانكم﴾ أي تضطغنون على رسول الله ﷺ وتضيق صدوركم لذلك، وأظهرتم كراهتكم ومقتكم لدين يذهب بأموالكم والضمير في يخرج لله عز وجل أي يضغنكم بطلب أموالكم أو للبخل لأنه سبب الاضطغان، وقرئ نخرج بالنون ويخرج بالياء والتاء مع فتحهما ورفع أضغانكم.

هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾.

﴿هؤلاء﴾ موصول بمعنى الذين صلته ﴿تدعون﴾ أي أنتم الذين تدعون، أو أنتم يا مخاطبون هؤلاء الموصوفون ثم استأنف وصفهم كأنهم قالوا: وما وصفنا فقيل تدعون ﴿لتنفقوا في سبيل الله﴾ قيل هي النفقة في الغزو وقيل الزكاة كأنه قيل الدليل على أنه لو أحفاكم لبخلتم وكرهتم العطاء واضطغنتم أنكم تدعون إلى أداء ربع العشر فمنكم ناس يبخلون به، ثم قال ﴿ومن يبخل﴾ بالصدقة وأداء الفريضة فلا يتعدّاه ضرر بخله وإنما ﴿يبخل عن نفسه﴾ يقال: بخلت عليه وعنه وكذلك ضننت عليه وعنه، ثم أخبر أنه لا يأمر بذلك ولا يدعو إليه لحاجته إليه فهو الغني الذي تستحيل عليه الحاجات، ولكن لحاجتكم وفقركم إلى الثواب ﴿وإن تتولوا﴾ معطوف على وإن تؤمنوا وتتقوا ﴿يستبدل قومًا غيركم﴾ يخلق قومًا سواكم على خلاف صفتكم راغبين في الإيمان والتقوى غير متولين عنهما كقوله تعالى: ﴿ويأت بخلق جديد﴾[4] وقيل: هم الملائكة وقيل: الأنصار، وعن ابن عباس كندة والنخع وعن الحسن العجم وعن عكرمة فارس والرم، وسئل رسول الله ﷺ عن القوم وكان سلمان إلى جنبه فضرب على فخذه، وقال هذا وقومه والذي نفسي بيده لو كان الإيمان منوطًا بالثريا لتناوله رجال من فارس[5] وعن

(1) المصدر السابق، وذكره ابن مردويه في تفسيره، الزيلعي 3/300.

(2) سورة طه، الآية: 68.

(3) أخرجه البخاري في كتاب: مواقيت الصلاة، باب: إثم من فاتته صلاة العصر (الحديث رقم: 552)، وأخرجه مسلم في كتاب: المساجد... باب: التغليظ في تفويت صلاة العصر (الحديث رقم: 200 ـ 626).

(4) سورة فاطر، الآية: 16.

(5) أخرجه ابن حبان في كتاب: إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة، باب: الحجاز واليمن والشام وفارس وعمان (الحديث رقم: 7308)، وأخرجه الترمذي في كتاب التفسير، باب: ومن سورة الجمعة، (الحديث رقم: 3310).

رسول الله ﷺ من قرأ سورة محمد ﷺ كان حقًا على الله أن يسقيه من أنهار الجنة[1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الفتح مدنية

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١.

هو فتح مكة وقد نزلت مرجع رسول الله ﷺ عن مكة عام الحديبية عدة له بالفتح، وجيء به على لفظ الماضي على عادة رب العزة سبحانه في أخباره لأنها في تحققها وتيقنها بمنزلة الكائنة الموجودة. وفي ذلك من الفخامة والدلالة على علو شأن المخبر ما لا يخفى.

فإن قُلْتَ: كيف جعل فتح مكة علة للمغفرة؟ **قُلْتُ:** لم يجعل علة للمغفرة ولكن لاجتماع ما عدّد من الأمور الأربعة وهي المغفرة، وإتمام النعمة وهداية الصراط المستقيم والنصر العزيز كأنه قيل يسرنا لك فتح مكة ونصرناك على عدوك لنجمع لك بين عز الدارين وأغراض العاجل والآجل، ويجوز أن يكون فتح مكة من حيث أنه جهاد للعدو سببًا للغفران والثواب والفتح: الظفر بالبلد عنوة، أو صلحًا بحرب أو بغير حرب لأنه منغلق ما لم يظفر به فإذا ظفر به وحصل في اليد فقد فتح، وقيل: هو فتح الحديبية ولم يكن فيه قتال شديد ولكن ترام بين القوم بسهام وحجارة، وعن ابن عباس رضي الله عنه: رموا المشركين حتى أدخلوا في ديارهم، وعن الكلبي ظهروا عليهم حتى سألوا الصلح.

فإن قُلْتَ: كيف يكون فتحًا وقد أحصروا فنحروا وحلقوا بالحديبية؟ **قُلْتُ:** كان ذلك قبل الهدنة فلما طلبوها، وتمت كان فتحًا مبينًا وعن موسى بن عقبة أقبل رسول الله ﷺ من الحديبية راجعًا فقال رجل من أصحابه ما هذا بفتح لقد صدّونا عن البيت، وصدّ هدينا فبلغ النبي ﷺ فقال: بئس الكلام هذا بل هو أعظم الفتوح، وقد رضي المشركون أن يدفعوكم عن بلادهم بالراح ويسألوكم القضية ويرغبوا إليكم في الأمان، وقد رأوا منكم ما كرهوا[2] وعن الشعبي: نزلت بالحديبية وأصاب رسول الله ﷺ في تلك الغزوة ما لم يصب في غزوة أصاب أن بويع بيعة الرضوان، وغفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر وظهرت الروم على فارس وبلغ الهدي محله وأطعموا نخل خيبر وكان في فتح الحديبية آية عظيمة، وذلك أنه نزح ماؤها حتى لم يبق فيها قطرة فتمضمض رسول الله ﷺ، ثم مجه فيها فدرت بالماء حتى شرب جميع من كان معه وقيل فجاش بالماء حتى امتلأت ولم ينفد ماؤها بعد[3] وقيل: هو فتح خيبر وقيل: فتح الروم، وقيل: فتح الله له بالإسلام والنبوّة والدعوة بالحجة والسيف، ولا فتح أبين منه وأعظم وهو رأس الفتوح كلها إذ لا فتح من فتوح الإسلام إلا وهو تحته ومتشعب منه وقيل معناه قضينا لك قضاء بينًا على أهل مكة أن تدخلها أنت وأصحابك من قابل لتطوفوا بالبيت من الفتاحة وهي الحكومة وكذا عن قتادة.

لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢.

﴿ما تقدّم من ذنبك وما تأخر﴾ يريد جميع ما فرط منك وعن مقاتل ما تقدّم في الجاهلية، وما بعدها وقيل ما تقدّم من حديث مارية وما تأخر من امرأة زيد.

وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣.

﴿نصرًا عزيزًا﴾ فيه عز ومنعة، أو وصف بصفة المنصور إسنادًا مجازيًا أو عزيزًا صاحبه.

هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٤ لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٥.

﴿السكينة﴾ السكون كالبهيتة للبهتان أي أنزل الله في قلوبهم السكون، والطمأنينة بسبب الصلح والأمن ليعرفوا فضل الله عليهم بتيسير الأمن بعد الخوف والهدنة غب القتال فيزدادوا يقينًا إلى يقينهم، وأنزل فيها السكون إلى ما جاء به محمد عليه السلام من الشرائع **﴿ليزدادوا إيمانًا﴾** بالشرائع مقرونًا إلى إيمانهم، وهو التوحيد عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن أوّل ما أتاهم به النبي ﷺ التوحيد فلما آمنوا بالله وحده أنزل الصلاة والزكاة، ثم الحج ثم الجهاد فازدادوا إيمانًا إلى إيمانهم أو أنزل فيها الوقار والعظمة لله عزّ وجل ولرسوله ليزدادوا باعتقاد ذلك إيمانًا إلى إيمانهم وقيل أنزل فيها الرحمة ليتراحموا فيزداد إيمانهم **﴿ولله جنود السموات والأرض﴾** يسلط بعضها على بعض كما يقتضيه علمه وحكمته ومن قضيته أن سكن قلوب المؤمنين بصلح الحديبية ووعدهم أن يفتح لهم، وإنما قضى ذلك ليعرف المؤمنون نعمة الله فيه ويشكروها فيستحقوا الثواب فيثيبهم ويعذب الكافرين والمنافقين لما غاظهم من ذلك وكرهوه.

وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ

(1) ذكره الثعلبي وابن مردويه، وذكره الواحدي، الزيلعي 3/301.

(2) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة، باب: قصة الحديبية، الزيلعي 3/305.

(3) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: غزوة الحديبية، (الحديث رقم: 4150)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: غزوة ذي قرد، (الحديث رقم: 132 ـ 1807).

openkanal.com